

خلفيات العنف ضد المرأة بين المعقول واللامعقول

مقتطفات من التراث والأدب الشعبي

وقضايا الجندر

د. بن فرحات فتيحة

أ. بقسم علم الاجتماع والديموغرافيا

جامعة البليدة

ملخص :

يندرج مقالنا ضمن إطار القراءات التراثية والقراءات الواقعية لوضع المرأة ومكانتها في المجتمع الإنساني، بالانطلاق من كيانها المرمز الذي خضع لتفكيكات مختلفة ومتناقضة حسب المادة التي أخضعت للقراءة والتحليل والتفكيك، والتي بدورها كانت تقع في جانبين، جانب ينظر للمرأة بنظرة إيجابية، وجانب نظر إليها بمنتهى السلبية، وهذا هو المنطلق الذي أردنا الإشارة إليه من زاوية العنف المسلط عليها سواء كان عنفا ماديا أو معنويا، وخلفياته الواقعة بين المعقول واللامعقول.

فالمرأة عبر العصور كانت ولا زالت خاضعة للشائيات والمتضادات من قبيل الكائن المقدس والمدنس، الخير والشرير... الخ، وانتقلت المتناقضات عبر المخيال الاجتماعي واللغة وطرق التعامل معها شعوريا ولا شعوريا، وتتمظهر هذه المخلفات في التفسيرات الميثولوجية والعقائدية والدينية والأدبية والكثير من الممارسات الاجتماعية المتصلة بالشرف والممارسات المفروضة على جسدها كقانون اجتماعي تباركه الجماعة وترتضيه ، بالإضافة إلى الأحاديث و التعابير والأقوال والأمثال الشعبية المتداولة والتي تحذر منها وتوجه لها سيلا من التهم وطرقا من المعاملة المتسمة بنوع من العنف، لنصل إلى ما هو متفق عليه اجتماعيا حول قضايا النوع الاجتماعي أو الجندر ثم آليات إعادة إنتاج العنف الاجتماعي من خلال الكثير من القضايا المطروحة عبر القوانين الوضعية وعبر ماهو متداول إعلاميا وكذا قضايا التربية والتعليم وغيره من القضايا المطروحة اليوم، والتي تبدو في طابعها العام المموه تعيد إنتاج ما كان سائدا عن المرأة في السابق ولكن بأسلوب حدائي يتنازل حيناً ويتشدد حيناً آخر حسب المجتمعات ومكانة المرأة في إطارها .

Résumé:

cet article rentre dans les lectures patrimoniales qui traite la situation réelle de la femme dans la société humaine, en commençant par son corps et ces différents symboles portés dans plusieurs lectures qui dépendent la matière analysée et déchiffrée qui porte parfois une vision positive pour la femme et tantôt une vision péjorative , et nous voulons démarrer notre recherche par l'opinion négatif sur la femme à travers la violence que la femme a subi quelque soit sa nature : violence physique ou verbale et leur conséquences .

A travers les différentes époques la femme a été et elle est toujours dépendue aux contradictions de l'être sacré et non sacré, le bienfaiteur et le malfaiteur....etc et ces contradictions sont transférées à la manière de se comporter avec elle (la femme) consciemment ou inconsciemment, aussi elles (les conséquences) apparaissent dans les explications mythologiques, littéraires et religieuses et les différents comportements qui sont liés à l'honneur de la femme et à son corps imposé comme une loi sociale accordé par le groupe social.

Et nous arrivons au consensus social sur plusieurs questions y compris le genre et ses mécanismes de reproduction de violence sociale à travers les différentes questions traduisent actuellement par la mass-média et d'autres sujets comme l'éducation et l'enseignement.

Enfin nous constatons que toutes ces questions traitées sur la femme actuellement reproduisent ce qui a été au passé avec un nouveau style tantôt ferme et tantôt tolérant selon la position et la situation de la femme dans chaque société.

مقدمة :

يعد العنف بأنواعه (جسدي أو نفسي) أقدم رفيق عرفه الإنسان، ومن المرجح أن الإنسان البدائي، حينما أتاحت له أولى ومضات العقل، أن يصنع بعض الأسلحة البدائية للدفاع عن نفسه، استعملها أيضا ليفتك بأمثاله ومع تعقد حياته اتخذت أشكال العنف هذه عدة مظاهر منها المعقول ومنها الغير معقول الممارس بدافع كامن في النفس والعقلية البشرية، فقد كان لها معاني كامنة وخفية مارستها الجماعات البشرية، كما مورس فرديًا، كممارسة تلحق الأذى أو تمس حق الآخر في الحياة كالمرأة.

وقد قامت دراسات مستفيضة حول ذلك جلها يؤسس لما خضعت له المرأة ونعني بذلك خلفيات العنف ضدها بين المعقول واللامعقول، حيث كانت عبر العصور خاضعة للثنائيات والأضداد بين ما هو مقدس ومدنس، جمالي وقبيح، مذنب وبريء خير وشرير... الخ وذلك على أساس النوع الاجتماعي، هذه الثنائيات انتقلت من مكان لآخر ومن زمان لآخر، عبر عمليات الانتشار والاستعارة لتفصح عن نظام تصوري مخيالي للمجتمعات الإنسانية قاطبة، باعتبار أن ثقافة الماضي مازالت تسيطر على الحاضر وتوجهه، ومن المعروف أنه لفهم أي ظاهرة اجتماعية، لابد من العودة إلى أصولها التاريخية وكيفية تطورها، فالبحث في ظاهرة العنف -ونعني هنا تحديدًا الدونية- ضد المرأة في المجتمعات الإنسانية ومجتمعنا بالتحديد يستدعي إلقاء نظرة متأنية وعميقة على مكانة المرأة ووضعها في التاريخ والتراث الإنساني وفي ثقافتنا الشعبية لنصل إلى حالها اليوم وفي إطار الواقع الاجتماعي الذي تسوده مظاهر العنف بأشكاله المعاصرة التي لم تخضع للتجريم رغم فداحة مظاهرها .

1- العنف ضد المرأة في المخيال الاجتماعي :

أ- العنف التفسيرات الميثولوجية والعقائدية :

يقتضي هذا الطرح التوقف عند مجموعة من المظاهر الفكرية الميثولوجية المتداخلة مع الدين، بعضها يقره العقل وآخر يعتبر في عداد المسكوت عنه، ونلاحظ أن جلّ الثقافات تحمل جزءا من هذا الطرح الذي يحصر المرأة بين شقين

مقدس ومهندس أو موضع اتهام وآخر موضع تبرئة وتشريف، يعايشها الشقان منذ بدأ الخليقة إلى يومنا هذا، عبر نصوص كثيرة أنشئت للفصل بين الأساس ولاحقه أي بين المرأة والرجل في علاقتهما أو لنقل الفصل بين آدم وحواء.

أن المرأة ككيان هي: (الإيروس): المبدأ السالب في اليونانية، ومنبع الغرائز، و(الين): المعادل للظلام والعتمة والغموض، صينيًا وجامعة الغرائز ومصدر الخطيئة الأصلية في المسيحية، والضلع الناقص قبلها في اليهودية، والمرأة الضلع الأعوج في الإسلام، وجامعة الشهوة كذلك، و(الأنيميا): الطاقة السالبة يونغيا، والرجل المخصي فرويديا... إلخ". (1)

وتثبت التفاسير والتصورات الميثولوجية المتغلغلة في الفكر العربي الإسلامي أن المرأة (حواء) هي سبب ضلال الرجل (آدم) فهي المضللة والمضللة، المغررة والمغررة وتحملها الوزر كله بتحالفها وتعاونها مع الشيطان والحية والتسبب في إخراج آدم وخلفه من الجنة الأزلية لسبب يعود لكونها خلقت من أعوج وهو الضلع الراجع لتفسيرات السالفة، إن لعلاقة المرأة بالضلع المأخوذ من صدر الرجل، قضايا مثيرة وحاسمة في النعوت الكثيرة المنسوبة إلى حواء كلها على نسق الفكر اليهودي -المسيحي وذات أبعاد ميثولوجية ودينية ترسخت في الذاكرة الجماعية التي جردتها من: "... صفتها الكينونية، ككائن حي عاقل، مؤثر، وفاعل في الطبيعة، وقوبلت بجزء من هذا الكائن، هو الجزء المريض، فالسلبى أي الضلع ثم عرف باعتباره أعوجا لاحقا وقد تأكد ذلك من خلال جمهرة ضخمة من المشاهد الممسرحة والأمثولات الموثقة والوقائع الموجهة والشهادات الحية المشاركة في مشهدية الصراع بين مبدأين هما الأنثى والذكر...". (2)

وبقيت تبعات هذا الفكر راسبة في وجدان البشرية عامة (الشرق أو الشعوب السامية وملتقى الديانات الثلاث...) تردد في أمثالهم وأقوالهم ومعتقداتهم وغيره، وهكذا كانت المرأة/ حواء المسؤولة عن الإثم والدنس الذي أصاب الرجل/ آدم في الحياة الفردوسية ومن ثمة الهبوط إلى الدنيا مع رحلة الشقاء المتكررة إلى وقت معلوم وبمعنى أدق العقاب الإلهي الذي ناله الشيطان بعد رفضه السجود لآدم لأنه

خلق من طين وهو من نار، ثم عقاب الحية بالزحف وحواء بعسر الولادة وآدم بالارتباط بالأرض يعني الشقاء الديني.

ويلاحظ أن مختلف الرؤى السابقة الذكر تعود في الأساس إلى أزمنة عاشها الشرق القديم وإلى ممارسات لازلت سائدة تردد في مختلف المحافل والمناسبات وبأشكال متعددة ومنها أن "المرأة هي الفتنة الخالصة التي تحمل الرجل على الوقوع في المحذور والزيغان" منها المردد في الأحاديث والأقوال والمعتقدات وعلى ألسنة كبار المفكرين والمنظرين القدامى والمحدثين (اليونان...) والكتاب العرب وغير العرب والمتصوفة والرهبان وغيرهم كلها يدور أو يقع في باب الدنس والإثم والفساد الذي وسمت به المرأة ولا زالت، بسبب يرجع الفضل فيه للأسف لخطيئتها الأولى، في علاقتها بالشيطان تهماً المجتمعات المؤمنة بهذه العلاقة يعني المجتمع العربي الإسلامي عموماً والمجتمع الجزائري على وجه التحديد، سنوجز بعضها دون التعمق في معناها أي الشرح من الوجهة الفقهية أو الدينية ومن الأقوال والأحاديث والاعتقادات الداخلة في هذا الباب نذكر:

"المرأة تملك أصول الشهوات، وهي باب الدمار والخذلان، والمرأة هي الجحيم، هي البلاء يصبه الله على رؤوس العباد، هي الشقاء المعجل... المرأة في جميع أحوالها مصدر فساد ولها مداخل إلى الفتنة يعجز عنها إبليس...". (3)

وثمة أحاديث مضمونها التحذير من فتنة النساء ومنها: "أول فتنة بني إسرائيل كانت فتنة النساء... وما تركت بعدي فتنة أضّر على الرجال من النساء... المرأة بفتنتها تقبل في صورة شيطان... ما يؤس الشيطان من ولي قط إلا آتاه من قبل النساء... قيل أن إبليس قال لها: أنت نصفني جندي، وأنت موضع سري، وأنت سهمي الذي أرمي به ولا أخطأ" ... إلخ

بل يرمز لها في جل الثقافات -عدى الأم الطاهرة المقدسة، المضحية، العفيفة- بالماكرة، المغرية، الأفعى، اللعوب، الغاوية، الشر المستطير... إلخ، يلاحظ أن جل هذه التصورات يعكس ثقافة العنف اللفظي التي سادت في مخيالنا مهما تعددت مشاريعه.

وأضافوا إلى صفات جسدية كثيرة تدخل في باب العنيف من اللفظ غير مرغوب ولا يسع المقام هنا لإدراجه كله لكن سنذكر كذلك صفات نفسية كثيرة لإكمال التصور اللفظي العنيف الذي حصروا فيه المرأة ومنه أنه قيل لأعرابي: "صف لنا شر النساء، فقال: شرهن النحيفة الجسم، القليلة اللحم، المحياض، الممراض، المصفرة، الميشومة، العسرة، المباشومة، السلطة، البطرة، النفرة، السريعة الوثبة، كأن لسانها حربة، تضحك من غير عجب، وتبكي من غير سبب، وتدعو على زوجها بالحرب، أنف في السماء وإست في الماء، عرقوبها حديد، منتفخة الوريد، كلامها وعيد، وصوتها شديد، تدفن الحسنات وتفشي السيئات، تعين الزمان على بعلها، ولا تعين بعلها على الزمان، ليس في قلبها عليه رافة ولا عليها منه مخافة، إن دخل خرجت، وإن خرج دخلت، وإن ضحك بكت، وإن بكى ضحكت، كثيرة الدعاء، قليلة الإرعاء، تأكل لماً، وتوسع ذمّاً، ضيقة الباع، مهتوكة القناع، صبيها مهزول، وبيتها مزبول، إذا حدثت تشير بالأصابع وتبكي في المجمع، بادية من حجابها، نابحة عند بابها، تبكي وهي ظالمة، وتشهد وهي غائبة، قد دلى لسانها بالزور، وسال دمعها بالفجور، ابتلاها الله بالويل والثبور وعظائم الأمور..." (4).

وقال حكيم: "النساء شر كلهن، وشر ما فيهن قلة الاستغناء عنهن... لا تتق بأمرأة ولا تغتر بمال وإن كثر، وقيل النساء حبائل الشيطان..." (5). وقال آخرون: "لم تنته امرأة عن شيء قط إلا فعلته... إياك ومشاورة النساء فإن رأيهن إلى أفن، وعزمهن إلى وهن... إنهن ينسين الخير، ويحفظن الشر، يتهافتن في البهتان، ويتمادين في الطغيان... استعيذوا بالله من شرار النساء وكونوا من خيارهن على حذر..." (6).

وقيل: "... خالفوا النساء فإن في خلافهن بركة... فجور المرأة كفجور ألف فاجر وبرّ المرأة كعمل سبعين صديقاً، لولا النساء لعبد الله حق عبادته، احمّلوا النساء على أهوائهن... طاعة المرأة ندامة..." (7).

ومن أمثالهم في المرأة أنها: "... تردي العقل وتذل الأعراب، وقيل: كل أسير يفك إلا أسير النساء فإنه مملوك وما استرعين شيئا قط إلا ضاع وما استأمن على سرّ إلا شاع، ولا أطلعن على شر فقصرن عنه ولا رأين خير فأعطين منه...". (8)

إن العرب نظروا إلى المرأة عبر هذا التصوير نظرة ريب وحذر دائم وكثيرا ما كانوا يشككون فيها وينبذونها حتى ترسّبت في مخيالهم ومعاملاتهم اليومية فأصبحت جزءا من نظرتهم وتصورهم للمرأة ككيان (الجسد والنفس) منه ما دَوّن فحفظ، ومنه ما بقي متداولاً يستدل به في كل صغيرة وكبيرة تخص المرأة ومنه ما نسي وذهب أدراج الرياح.

نستطيع القول من خلال ما سبق من الصفات المادية والنفسية للمرأة أن العرب خاصة في قراءتنا هذه كانوا يستبشعون كل ما يصدر عن المرأة ويحاولون تقويمه خاصة الجوانب النفسية التي تدخل في إطار السلبي الغير مرغوب وهي تشكيلة خاصة من المفاهيم التي تصف نفسيّتها (السلبيات) وماديتها يعني جسدها (الدمامة والقبح).

تاريخ المرأة مع هذه الثلاثية الإغواء - الإغراء - الفتنة ضاربة في القدم جذورها ميثولوجية ودينية، تجمع أو هي محصلة عدة ثقافات منها ثقافة الشرق عموما، فكل امرأة تتصف بمثل الصفات المذكورة تعد امرأة ناقصة نقصا ماديا وآخر نفسيا، ويرغبون في ضدها ويعلنون رغبتهم بأشكال مختلفة داخلية في إطار المخيال الاجتماعي (من نصوص ميثولوجية، قصص، أحاديث نبوية، أقوال وتعبير، وكذا أمثال وحكم وغيره، المدون أو الغير مدون، الكتابي أو الشفهي، الشعر أو النثر جله محشوا بعنف الخطاب المدون).

ب- العنف ضد المرأة وطقوس الجماعة : (الجريمة بمباركة جماعية)

إن البحث في مكامن الدونية والقهر المسلطين على المرأة بالضرورة يلزمنا العودة إلى الثقافات الإنسانية عبر المكانة التي كانت تحتلها المرأة وكذا نظرة الأفراد إليها وتصورهم عنها كذات واعية، وقد رأينا أنواعا من العنف مسلطة على المرأة في عنف الخطاب واللفظ ووسمها بمختلف الصفات والسمات الداعية إلى حجرها وكتبها عبر الحضارات البائدة أو السائدة على مرّ العصور ومختلف

الأصقاع، ممارسات أخذت منحى واتجاه عنيف ووحشي لكن بطابع قدسي، مؤسّس سمح بإقامة الدماء، بتر الأعضاء، التشويه القتل، تقديم أجزاء معينة للآلهة من أشلاء عناصرها بشرية وأخرى حيوانية، وقد طالت هذه الممارسات المرأة كأحد العناصر المقدمة للآلهة، وكذا بعض الممارسات التي تطلبت رموزية أخرى كما يؤكد علماء الأنثروبولوجيا فيما يتعلق باللون الأحمر أو الدم المقدم المتطلب وجوده في ممارسات اجتماعية سنحاول التطرق لها لاحقاً.

وما يهمنا في هذا المجال هو نوع من العنف خاض فيه الأنثروبولوجيين والاجتماعيين معاً وكلاهما أسس لمفهوم العنف المقدس يعني ممارسته في: "ميدان قدسي يحتوي مختلف أشكاله ولاسيما العبادة، بحيث يعتبر العنف وجهاً من وجوهها وكأنه ممارس لطقس من طقوسها، سواء في حالات سفك الدماء في القتال أو الأضاحي البشرية، رمزية كانت أم حقيقية... وما بعض الاحتفالات التي يجلد فيها الإنسان نفسه، سوى أنواع من العنف المقدس..." (9)

وبوسعنا الإشارة إلى مجموع الممارسات تلك والتي عرفها الإنسان منذ القديم ووسمت بالقداسة سواء كانت الممارسات أسطورية أو اجتماعية لها بقايا إلى يومنا ومنها نذكر:

1- العذاري كقربان بشرية:

لا يفوتنا في هذا الإطار الإشارة أو تناول جزء من هذه الجوانب الأسطورية الداخلة في نظام تقديم القربان البشرية التي كان بعض عناصرها صبايا وعذارى قدمن للآلهة (في الأنهار، الوديان، النار، المعبد، الجبال، البحار... إلخ)، فقد كانت البعض من التقاليد في بعض المجتمعات القديمة تقتضي: " بأن تشق الصبايا العاريات الأتلام الأولى بواسطة المحراث رغبة في إحداث خصوبة أوفر قدرا في الأرض... " (10)

وانتشرت هذه العادات واستشرت عبر مناطق الإنتشار إلى مناطق ودوائر أخرى، وهذه المراسيم ارتبطت بمواسم كالأعياد والعادات الزراعية والحصاد ومظاهر الطبيعة الغاضبة (فيضان النهر، ثوران البركان...).

كما أن هناك صبايا كن منذورات للآلهة يقدمن في احتفال طقوسي خاص بمواسم البذر والحصاد، فعند شعوب الأستك مثلاً: "... ما إن يظهر رسيم القمح في الحقول حتى تذهب القبيلة إلى الحقل لتحضر إله القمح، وهو عبارة عن نبتة صغيرة يؤتى بها إلى البيت، وتقدم لها الهبات الغذائية، وفي المساء تؤخذ النبتة إلى معبد آلهة الأغذية حيث تتجمع فتيات، تحمل كل منهن سبع سنابل من الحصاد السابق، وتختار الصبايا من ثلاثة أعمار مختلفة توازي مراحل نمو الذرة وتكون ساقا الفتاة مكسوتين بالريش الأحمر، وهو لون آلهة الذرة الرمزي، وبعد ثلاثة أشهر أي حين تتضج الذرة، يقطع رأس صبية ترمز إلى آلهة الذرة الجديدة الأمر الذي يجعل أكل هذه الأخيرة مشروعاً ...". (11)

في نهاية الحصاد يقوم الإستك "... بالتضحية ثانية بجسد امرأة، يمثلون بالآلهة توسي، فيسلخ جلدها ويغطي الكاهن به جسده ويحمل قطعة من ساق الأضحية أو الضحية إلى المذبح، حيث يقف الكاهن الثاني ويلقب بالنفساء - امرأة تلد - مقنعا لإتمام طقوس ومعناه أن الفتاة المقدمة كقربان ستولد وتحيا من جديد من الذرة الجافة ...". (12)

ونجد ذات السلوك في إفريقيا إلا أن جسد الفتاة يدفن في أماكن متعددة من الحقول من أجل الحصول على الإخصاب كما نجد من يعمد إلى طحن عظامها، ويتر أعضاءها والطهي على نار وشعوب البحر المتوسط تلجأ إلى الخنق والإغراق (كما كان يفعل المصريون عندما يرمون بعذراء في نهر النيل كي يفيض ويعم الخير والخصب والنعم...) والجرمانيين يعمدون إلى الطمر ودفن الضحية والعرب كانوا يلجأون إلى الوأد، أو الدفن كذلك وهي على قد الحياة، ونلاحظ أن هذه الممارسات لم تدخل في إطار الإجرام رغم وحشيتها لأنها كانت تتم بمباركة جماعية.

كما انتشرت هذه العادات في قبائل أخرى أمريكية، وأسترالية وإندونيسية، وتكررت في مناطق عديدة من العالم "طقوس القربان، والقربان البشرية تحديداً، ظاهرة عالمية، كانت تمارس أثناء طقوس الزراعة ...". (13)

ونجد الصينيون قديما يعهدون بالبنت إلى النهر الأصفر ويسمّون الظاهرة بالزواج من النهر الأصفر والفراغة يختارون فتاة جميلة، بكرا، يزينوها ويقدمونها كقربان كل عام إلى النيل، يرمونها مقيدة، مغلولة للنهر، كي يفيض ويعم الخير، فإن ماتت دلّ ذلك على أن الآلهة راضية وعامهم سيكون خصبا بينما إذا حدث العكس سيعمّ البلاء والكساد والمجاعة وعندما فتح العرب مصر وجد عمرو بن العاص أهل مصر يصرون على تنفيذ عاداتهم فأبطلها لأنها بدعة وخرافة وجزء من الأساطير والعبادات اللامعقولة والممارسات الوحشية .

2- الوأد بين قريان وعار:

كشف القرآن الكريم عادة الوأد التي لا يمكن طمس ماضيها الوثني أو تناسي حقيقة ممارستها المنتشرة عند بعض القبائل العربية قبل الإسلام وكانت الفتاة التي يقع عليها فعل القتل تسمى بالموؤدة أو الوئيدة : "وإذا الموؤدة سئلت، بأي ذنب قتلت ... " (14)، وينبأ هذا الفعل عن المكانة التي احتلتها المرأة بين هذه القبائل، بحيث تحمل الفتاة أو المولودة الحديثة أو بعد بضع سنين الست سنوات تقريبا إلى حفرة يحفرها الأب كي تطمر فيها دون أدنى اعتبار لإنسانيتها وكثيرا ما يبرر الفعل تحت غطاء ديني وفي أحايين أخرى يربط بالظروف الاجتماعية. وما هذه الأسباب إلا واجهة يتحجج بها أصحابها هروبا من اللوم أو العار اللاحق بهم. وكلها عوامل سهلت قبول الظاهرة وتخطي الشعور الإنساني تجاه البنت الموؤدة .

3- البكارة والدم:

يعدّ الزواج شأن اجتماعي واعتقادي/ ديني لدى الكثير من الشعوب، خاصة الإسلامية، ينبني على العلاقة التي تجمع الرجل بالمرأة من خلال مجموعة من الروابط، خاصة الرابطة الجنسية ذات البعد الاجتماعي، وفي هذا النوع من المجتمعات خاصة شعوب البحر المتوسط تولي هذا الرباط أهمية وتضرب حصارا منذ البلوغ على الفتاة كي تحمي عذريتها وخاصة منها المناطق المغاربية التي تعتبر العذرية هاجس عائلي يمثل الشرف للجميع ... " (15).

إن هذا النوع من الروابط يركز على المرأة في جزء يتعلق بها هو العذرية أو البكارة التي تعتبر شهادة شرف وحسن سلوك وتربية وأخلاق: "إن العذرية هي

قضيتها، تقدم كأضحية ليلة الزواج، وذلك عن طريق التشهير والعرض الذي يضمن أنها احترمت العرف، كعرض إزار ملطخ بالدم...⁽¹⁶⁾ علامة فارقة على أنها عذراء.

وكثيرا ما اعتبرت العذرية والبتولة والبركة أمورا مقدسة موكلة لرجال الدين لأنها ترتبط بالمقدس والدين ومباركة الجميع ولم يكن للمرأة الحق في ممارسة الجنس بعد هذه العملية المقدسة وكذلك العملية المتعلقة بإفتضاض الملوك للعدراوات... إلخ إن العذرية تمثل قيمة إجتماعية لدى العديد من الشعوب الإسلامية وغير الإسلامية: "دم العذرية الذي يسيل في سبيل الزواج أو دم الشهيد أو دم الثائر والثائر، أو العاشق والمعشوق... طاهر مطهر، وهذه الحالات كلها تدل على فعل الإرادة".⁽¹⁷⁾

ويدور محور الشرف و"النيف" كما ينطقه الجزائريون بجزء من كيان المرأة يتعلق بالفرج والفرج يساوي الشرف والشرف هنا يمس الرجل من قريب ومن بعيد (سواء كانت الزوجة أو القريبات...) "... والعذرية علامة دالة على القوة والسلطة، الرجل يقوم بالتضحية عن طريق أو بمساعدة الطقوس والاحتفاليات كي يبعد قوى الشر..."⁽¹⁸⁾.

ويلاحظ أن هذا الأمر هو محط تقديس من قبل الكثير من المجتمعات وكذا الأديان خاصة المجتمعات الإسلامية والدين الإسلامي، إلى جانب أديان أخرى توحيدية فحينها فقط: "تتقدم العروس الحشد ملفوفة بالأبيض الذي يحجب لون دم البكرة، مثلها في ذلك مثل القربان الطقوسي الذي يتقدم الحشد وهو سائر نحو مكان نحره، بين العروس والقربان قرابة هي ذاتها القرابة بين الألوان المتعددة لدم الجسد الإسماعيلي...".⁽¹⁹⁾

جسد الفتاة معرض إن لم يثبت جدارته عبر مفهوم العذرية الذي يرمي عدم وجوده إلى العار والتحقير وحتى القتل أي معرض للموت (الذبح... إلخ) -وكثيرا من هذه المظاهر كانت سائدة ولازالت إلى يومنا هذا بأشكال متعددة- ، وعند إثبات العذرية يثبت الشرف والرفعة بحيث أنها "... تعرض على الأنظار قماشاً مبقعا بدم غشاء البركة المفترع..."⁽²⁰⁾، وقد سرت عادات العرض هذه العديد من

المجتمعات خاصة المجتمعات العربية الإسلامية ولا زالت إلى يومنا في العديد من الأقطار، قليلة الزفاف بالنسبة لهذه المجتمعات هي بدون منازع : "... اللحظة المشهودة التي تصوير فيها الفتاة امرأة بمرأى من الجميع، حيث يقوم الرجل بإفتضاضها، وهذا يجعلنا نتصور فداحة الفقد عند العروس التي تضيق عذريتها..."⁽²¹⁾، وكما هو مرسخ عبر العادات والتقاليد، الأعراف والطقوس والشعائر الخاصة بقضية الزواج فإن العديد من الممارسات أو لنقل الأحداث فيما مضى وحتى أنيا لا تمكننا من الحديث: "... عن اتصال جنسي في ليلة الزفاف، بل هو، في واقع الأمر، اغتصاب فضائي، يشجع عليه النظام الاجتماعي الذي لا يهدف منه إلا أمر واحد : إسالة دم الضحية حرصا على المظاهر..."⁽²²⁾، تلك المظاهر أو المظهرية التي تعطي للشرف قيمة وأهمية لا تضاهيها قيم ومعايير أخرى.

ج- العنف عبر الأمثال الشعبية :

المرأة عبر الأمثال الشعبية الجزائرية كيان غير مرغوب فيه ولهذه النظرة ارتباط بما كان سائدا وتتجلى مظاهر عدم الرغبة فيها عند الميلاد فميلاد الأنثى يمثل خيبة أمل، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن: "ميلاد البنت في العائلة التقليدية يتم في سكون تام، فالأب عندما لا يسمع الزغاريد التي تعلن عن ولادة الذكر يتوجه غالبا إلى المقهى ليعزى..."⁽²³⁾، حيث: "... يخيم الحزن، والنساء اللواتي يردن الزيارة للأُم يقلن لها وكأنهن يعزينها "مبروك على الصهر" هذا الذي سيرتبط يوما ما بالفتاة..."⁽²⁴⁾، وفي هذا الجو التفاضلي تبدأ بوادر التمييز بين الجنسين على أساس فيزيولوجي ويتواصل في المعاملة التي يتلقاها الجنسان ويقوم المحيط بغرس مفهومي الذكورة (مكانة متفوقة) والأنوثة (مكانة متدنية) على مسمع الأبناء حتى قبل وعي جنسهم والأمثال كجزء من الخطاب الشفوي تحمل إشارات عن الفصل بين التأنيث كصفات وحالات متخيلة وعكسه التذكير ويدل على ذلك المثل التالي: "كلمة لا ذكر وكلمة إيه أنثى" طفيفة فوق تبسي خير من طفلة فوق كرسي"، "عام ديك غير من عام دجاجة" مدلول المثل قائم على إحتقار الأنوثة التي تساوي القبول والخنوع وإعلاء شأن الذكورة الرفض والتمرد والتعارض بين

السلبية / والإيجابية، الضعف / القوة، الأنفة / الخنوع ، يتواصل عنف الخطاب في طرق التربية أو طريقة التربية المتشددة والمراقبة الدائمة كي لا تحيد عن قيم المجتمع وتقاليده الداعية إلى صون العرض والشرف وكسر الحرمة (والنيف)، ولحماية الشرف الأبوي والأسري تدعوا الأمثال الشعبية إلى القسوة: "الطفلة حكها بالحلفا ولي بقا منوا ينكفى"، إن الفتاة حسب هذه الرؤية تعامل بقسوة لتتصاع للأوامر ولا تلوث الشرف العائلي.

ولحمايته تدعوا الأمثال الأب دعوة صريحة إلى التخلص من البنت بتزويجها حتى قبل الوصول إلى سن الزواج، لتشبه بوجع الضرس الذي وجب إزالته بقلعه: "بنتك لا كان كبرت أعطيها، وضرستك لا كان وجعائك الكلاب مليح ليها... قالت موكة أو الهامة : أنا خير من ثلاثة، لي قال الكلمة وما وفاها ولي دار القصعة وما ملاها ولي كبرت بنتوا وما عطاها...".

وهذه الرغبة ما هي إلا تعبير عن: "طلب الحماية الاجتماعية و"المظلمة الواقية" أي الضرورية لحسن السمعة، وشهادة على الشرف والفضيلة..." (25)، والذي يتتبع مسار الأمثال الشعبية يستحضر ما كان سائدا اجتماعيا من قيم تفرض على الفتاة التي دنست الشرف العائلي المهان وهنا نستظهر العنف المعنوي الموجه ضدها وربما يصل إلى حد العنف المادي الذي يقصي جسدها من الوجود.

وكذلك في الأهمية المعطاة للزواج تناولت الأمثال واقع المرأة التي تعيش العنوسة وتحاول التوصل منها بشتى الطرق وهي هنا تتوجه مباشرة للفتاة لترغيبها في الزواج والإنجاب: "تزوجي لا يقولوا بايرة وأولدي لا يقولوا عاقرة " أقعدي في عشك حتى يجي واحد ينشك" "كل معروضة مبخوسة..."، إن المرأة ملزمة بالزواج ومضطرة للخضوع إلى سلطان العادات والتقاليد التي ترى في المرأة العانس شؤما، تعيش حالة نفسية مزرية. إن المرأة لا تختار بين الزواج أو عدم الزواج، ولكنها يجب أن تتزوج وإلا فإن المجتمع لا يقبلها ولا يحترمها..." (26).

كما عرت الأمثال الشعبية جانبا من التعامل مع المرأة والذي يشمل العنف المادي بالضرب الذي كان أسلوبا ينتهجه الرجل لتأديب المرأة وتهديدها الدائم ويبدو هذا الأسلوب واضحا عبر ما تطرحه الأمثال الشعبية من قرائن تتعلق

بالعنف المادي أي الضرب: "أضرب العروسة تخاف الطاروسة... وذلك من أجل ردعها وتخويفها منذ البداية أي بداية الحياة الزوجية، وبالتدرج في هذه الحياة تواصل الأمثال في مد الرجل بالأسلوب الأمثل من التعامل مع الزوجة وهو الضرب كسلطة في يده، حتى وإن لم يعرف هو سبب ضربه لها، فهي ستعرف لأنها ربما قد حادت عن النظام السائد بتعاليلها عليه أو تمردها: "لي ما يذبح شاته ويسوط مرته موته خير من حياته... أضرب مرتك ديما وإذا أنت ما عرفتش علاه هي تعرف..."، كما تصور الأمثال الزوجة شاكية من هذا الوضع القاسي: "ما تدري بالمزود غير المبطوطة بيه" وتصور الأمثال جانبا آخر من حياة الزوجة في بيت زوجها حيث تبدوا محل تهديد دائم من قبل الزوج إما بالضرب أو بالتهديد: "اللهم مبطوطة ولماحلوف فيها..." والضرب على ما يبدو هو سلوك نموذجي تنبه إليه الأمثال الشعبية الرجل لكي يستعمله مع الزوجة، فالعصا أو سلطة الضرب تحيل المرأة إلى كائن راض، يقبل الأوامر، يطيع، يلتزم الصمت أو السكوت ف: "إن رابك شيء فالعصا"، هذه الجملة تختزل العصا في دلالة وحيدة: العقاب، فهي أداة الضرب وهو الموضوع، والجملة لا تصرح بالموضوع، لكنها تحذر العاصية بما ينتظرها مقابل احتجاجها أو رفضها للنظام السائد واستمرار يته... (27) .

وللأهمية المعطاة لمؤسسة الزواج والبيت الزوجية، كان خروج المرأة من هذه الرابطة محط انتقاد من قبل المجتمع خاصة بطلاق المرأة أو ترميلها فكلتا الوضعيتان في المجتمع التقليدي لا تجني منهما المرأة غير خيبة الأمل، وتتحمل وحدها وزر الخروج من هذه الرابطة، حتى وإن كان الوضع مفروضا عليها الهجالة (Hadjala): "كثرو سبايبك عند النهار نطلقك... الضرسة العليلة والمكحلة الثقيلة والزوجة الهبيلة زولهم ترتاح... من أمى ما تامنوا الهجالة" و"لا تأخذ الهجالة ولو كانت باهية الحالة" إن الألفاظ العنيفة الكثيرة عبر الأمثال (أقطع... زول... أخسر... فارق... الهجالة) كلها تعني الطلاق والمطلقة ذلك أنها صاحبة خبرة سابقة وكأن الخبرة عاهة.

كما أن المرأة تمثل وسيلة إنجاب، وعن طريق الأطفال الذين تتجبهم خاصة الذكور تحقق المكانة والقبول الاجتماعي وقد وجدنا الأمثال تدعم هذه الرؤية لأنها

نابعة من ذهنية المجتمع ورواه وتجاريه، ومن هنا تظهر أزمة المرأة العقيم (العاقر) والعقم هو: "... عكس الخصوبة، وهو فراغ الجسم، والإحساس بذلك الفراغ هو الذي يؤدي إلى الإحساس بالفراغ الاجتماعي..." (28) تصور الأمثال هذه الوضعية من خلال حشوها مع الكثير من التعابير الاجتماعية السائدة ك: خالية الدار، العاقرة... إلخ، "لف النساء يخلي الديار" و"هي تشكّلوا بالعقر وهو يقولها قداش أولادك" تعاني المرأة العقيم الأمرين بأسئلة الآخرين .

ويظهر أن وجود الأمثال الواردة في إطار المكونات السلبية ذات الأسلوب العنيف في ظاهره وباطنه، له هدف محدد إذ أنها تعرف الرجل وتحذره من هذا الكيان القائم في المجتمع مهما كان حال ووضع المرأة أو سنّها، فها هي تخضعها للتقييم في سن العجز والمتابعة بخروجها من عالم الأنوثة الفياض، كقولها "المرأة تخاف من الشيب قدما تخاف النعجة من الذيب" كي تروح العين تكحل في بلاصتها... "شابة شهوة والعجوزة بلوة... ثلاثة يكحلوا الوجه رقاد القفا ومشى الحفا ومن يتزوج امرأة شارفة... مشى حتى البر النساء وجاب عجوزة مهترسة، هي المرحلة التي يعتقد أنه لا وظيفة ولا أهمية للمرأة فيها لفقدائها صفات الأنوثة في سن العجز. إن الألفاظ (بلوة، شارفة، مهترسة، خارفة، تكسر عكازها... إلخ) تكشف عن ذلك الفارق الكبير بين الجسد الفتى، الجذاب، الشهوي والجسد العاجز، المهمل، البلوة، إنها نظرة المجتمع إلى المرأة شابة/ عجوزا نظرة ترى في ضرورة أن يكون جسد المرأة دائم الشباب.

وتحتقر الأمثال الشعبية المرأة البغي لأنها: " مجرد جسد يشتهي ، مجرد وعاء جنسي، لا يهم بعد ذلك أن تتمتع بأي ذكاء أو عقل أو حس أو قدرة على العطاء الاجتماعي، إنها إناء لذة الرجل، ينبذها ويزدريها بعد قضاء وطره، إنها تشتهي ولا تحترم... " (29)

كما تقدم الأمثال الشعبية كجزء من المخيال الاجتماعي ورقة تعريف عن عالم الأنوثة جزء كبير منها يتصف بالدونية والسلبية والعنف اللفظي الشفهي (خلقيا، نفسيا...) نماذج عامة تشمل الكل النسوي أو تشمل البعض أو المرأة كمثلة لجنسها نتعرف على جانب سلبي يعني الكل النسوي والذي ترمز إليه امرأة واحدة

كممثلة لجنسها أو نوعها عبر ما يصدر عنها من سلوكات وتصرفات كالحيل والمكائد، النفاق، الرياء وأيضا ما تعلق بها كذات تفنّد للعقل والرزانة وكذات مفطورة على الاعوجاج، فالمرأة الضلع الأعوج حسب التصور الثقافي العام (العربي والإسلامي خاصة) المتداخل مع ثقافات عديدة (التصور التوراتي) يرى أن: " المرأة عوجاء لأنها خلقت من أعوج وهو الضلع... " (30) هي الضلع: "إن ذهبت تقيمها كسرتها... وإن تركتها استمتعت بها على عوج (31) وتضيف الأمثال الشعبية كجزء من هذا المخيال الثقافي صورة عن هذا الإعوجاج فتقول: عادت حليلة لعادتها القديمة... لي فيها فيها لو تقطعولها يديها ورجليها... المرأة يجيبوها الكذوبي... " وتبرز المعادلة الثقافية المرأة كجسد فارغ من العقل يستعمل اللغة من أجل الرغي والثروة لاغير، لا تحفظ اللسان ولا تمسكه عن الإفشاء والثروة: " لا لسانها قد تكة سروالها " وهذه الأوصاف من دواعي المهانة والتحقير جاءت بصيغ تشهيرية وتعريضية عنيفة تحذر من المرأة الثائرة.

وتضاف إلى هذه الأوصاف المرأة التي لا تحفظ سرا والتي تنقل الأخبار وتعيد الأسرار فتقول "لي عينو في سره يفشيه يجي لمجلس النسا ويوريه... الرجال بالأفعال والنسا بالأقوال... مشات للحمام جابت أخبار عام... " المرأة في إطار هذا الوصف عالم مشكوك فيه، لغز يستعصي فهمه، متناقض والأمثال الشعبية تدعم هذا النوع من التصورات والأفكار المتصلة بها، حيث تبين أن المرأة تخالف ما تضرر ومحتالة ومتصنعة ومدعية للبراءة: "النسا إذا حبو يدبروا، وإذا كرهو يخبرو... إذا حبوك شريف يردوك وإذا كرهوك لا تكثر نفقة ولا توقف في الزنقة... "

وبمواصلة الحفر في هذا الشكل الأدبي المتميز نكتشف نموذجا آخر تعرضه أماننا الأمثال الشعبية كونها الأداة التي اتخذها الشيطان وسيلة لإيقاع الإنسان في الشر: " النسا بقرات ابليس... يالي تعيط قدام الباب عيط وكون فاهم

ما يفسد بين الأحباب غير النسا والدرهم "

وفي شأن هذا الخطر تدعوا الأمثال في معرض آخر إلى عدم مشاورة النساء أو العمل برأيهن لأن: " طاعة النسا ندامة... [و] طاعة النسا تدخل للنار... " إن

محدودية الأخذ برأيها أو التعامل معها تؤكد ذلك الخوف من القوة المرتبطة بها، القوة السلبية التي جعلتها قرينا للشيطان وأحد آلياته (جنده) المدمرة للإنسان (الرجل) قال القنفود للذئب : المرأة ثم المرأة، قالوا : الكبيرة ولا الصغيرة، قالوا : كيف كيف... " .

ويظهر الرجل عاجزا على مقاومة هذا النوع الذي يصور قادرا:

"النسا كيتهم ماتنتسى	ومرقتهم ما تتحسى
وإذا حلفوا فيك	غير أهرب بلا كسا
بهت النسا بهتين	من بهتهم جيت هارب
يتخرموا باللفاع	ويتخللوا بالعقارب" (32)
و: "كيد النسا كيديين	من كيدهم يا حزوني
راكبة على ظهر السبع	وتقول الحداء يا كلوني" (33)
سوق النسا مطيار	يا داخل رد بالك
يوروك من الريح قنطار	ويدرولك راس مالك (34)

لاحظ أن هذه المجموعة من الأمثال الحكيمة تؤكد على صفة الغدر والشر والخيانة وعدم وفاء المرأة وكلها صفات نموذجية تجمع على أن المرأة تمثل جنسها لتحذير الرجل ومعرفة النساء حسب هذا التصور كلها يعني الكيد بمعناه الواسع خاصة في جانبه السلبي. لذلك على الرجل الإحتراز من مكائدها: "إذا حلفت فيك امرأة بات قاعد وإذا حلف فيك راجل بات راقد... ثلاثة حوايج ما يتامنوشي في الدنيا، الزمان والنسا والخيال... أربعة يا إنسان ما فيهم أمان، المرأة والسلطان، البحر والزمان..." والظاهر أن فكرة علم النساء أو معرفة المرأة وقدرتها الأزلية على استعمال هذا السلاح (المعرفة): "... تنموا بالضرورة نظرا لما يفرض على كيانها من حدود وقيود، علاقة المكر هذه هي نتاج لوضعية القهر، وهي إحدى مظاهر التشويه الذي لابد أن يصيب كل علاقة سيطرة ورضوخ..." (35).

وكثيرا ما يشاع اجتماعيا تميز المرأة بمجموع الخصال المعروضة سابقا (ماكرة، غاوية، فانتة، لعوب، خائنة... إلخ) متقلبة كالزمان والبحر والسلطان إن لهذه الرؤية جذورا وخلفيات ثقافية مستمدة من الدين ومن الميثولوجيا حيث ترى

الرؤية الدينية عموما أن الجري وراء المال والنساء والسياسة مضيعة للحياة : " كل ما شغلك عن الله من أهل ومال وولد فهو عليك مشؤوم... " (36)

3- قضية النوع الاجتماعي والعنف ضد المرأة (إعادة إنتاج العنف في ثوب جديد) :

يتواصل العنف بمفهومه القديم والمتجدد عبر قضية النوع الاجتماعي التي تبرز كلما تم طرح مفهومي الذكورة والأنوثة في أي نقاش، و يكمن اختلاف مفهومي الذكورة والأنوثة، في ذلك الاختلاف الذي يبين أن اختلاف المرأة عن الرجل يظهر عبر مجموعة من الممارسات والمراسيم وطرق التعامل والسلوكات والأدوار وغيرها. الذكورة والأنوثة صفتان تستعملان للتمييز المسند إلى النوع الاجتماعي أساسا ثم الاختلاف الجنسي البيولوجي، فجل المجتمعات تتخذ من الفوارق البيولوجية قاعدة لتأكيد مبدأ الذكورة، القوة، الأدوار القيادية، ومبدأ الأنوثة الضعف، الأدوار الهامشية والمكانة المتدنية، لتحول هذه المبادئ إلى مجموعة مفاهيم تخص التصرف والسلوك ومجمل النشاط الذي يمارسه كل نوع.

إن فكرة النوع الاجتماعي قد سادت مختلف مراحل التفكير الاجتماعي البشري تقريبا، الذي خلق عالمين، فئتين، مبدئين متميزين، عالم يمثلته الرجال وآخر النساء تجمعهما علاقات تحددها وتنظمها الثقافة السائدة، وبهذا المعنى فإن النوع الاجتماعي ليس عملية طبيعية بيولوجية كما يعتقد وإنما هو نتاج وضعية المجتمع، بحيث يمكن أن تتغير هذه المواقف والأفكار بتغير المجتمعات.

إن هذا التباين يثبت أن قدرات المرأة أقل من قدرات الرجل في مختلف المجالات (تقسيم العمل...) وهذا أدى إلى فكرة تدني وضع المرأة ودونيتها التي أرست لدعائم النوع الاجتماعي.

والمفهوم بهذا المعنى يقوم على ما تعرضت له المرأة من أشكال المعاملة عبر التاريخ، فتاريخ الأنوثة ثقافي صنع اجتماعيا وحضاريا ورمزيا وأسطوريا وبيولوجيا: "تاريخ الاختلافات الذي يعكس سيرورة التمايز بينهما والهويات المتعددة ... إن النوع كمفهوم مركب من عوامل اجتماعية مؤسسة على الاختلافات المتعلقة بالجنس وبذلك فإن النوع هو الطريق الأول الدال على السلطة (37)

تبدأ بوادر التمييز بين الجنسين منذ الولادة، بحيث يكرس التمييز لحظة معرفة جنس المولود من خلال الأعضاء الخارجية "أنثى" "ذكر" ثم يتزايد التمييز بتزايد المراحل العمرية عن طريق عملية التنشئة الاجتماعية بفصل العالمين ومدّهما بقيم مختلفة، فيزداد تمثيل كل جنس في وعي الآخر عن طريق إنتاج مجموعة من الأفكار النمطية، الاختزالية، التي تجعل من جنس "الأنثى" دائماً في الوضع الأدنى، الأقل، الأضعف، السالب وأغلب الباحثين في هذا الإطار يتفقون على أن تقسيم الأدوار بين الجنسين خاضع للإطار الثقافي بحيث هو الذي يحدد عبر الأفكار النمطية المنظمة للعلاقة بينهما، وكلها يحدد قضية اختلاف النوع الاجتماعي، بل أكثر من ذلك ترسخ فيها الأفكار الدونية الأبدية، فكرة أنها أدنى من الرجل على أساس جنسي طبيعي ثم على أساس نوعي اجتماعي (وضعية التبعية، تقسيم العمل، ... إلخ) والمرتبطة بظروف عقائدية، أسطورية، اجتماعية، سياسية... إلخ، في مختلف المجتمعات تلك الثقافات التي لفت الجانب البيولوجي بتوليف ثقافي يصعب تفسيره وإيجاد خلفياته وجذوره الثقافية والاجتماعية، وفي الكثير من الأحيان يضرب حصاراً حول بعض المفهومات وكأنها طابوهات (Taboo).

ويلاحظ من خلال قراءتنا السريعة للفكر البشري أنه قد منح الرجل والمرأة مجموعة من النعوت والمتواليات وقد كان للغة الدور الكبير في إرسائها على اختلافها، فالرجل الذكر هو العقل، المعرفة، العلم، الجرأة، الإقدام، الأقوى، الأشجع، الأصلب... صفاته دالة على الفحولة التي تميزه عن الأنوثة، تخلق له عالم خاص به نقيض عالم المرأة، فالرجل هنا يتضمن العقل والعقلي رديف الانضباط والحزم والجدية، حتى أن الجسد يعني جسد الرجل لا يوازي جسد المرأة ونفس الرجل لا توازي نفس المرأة تراتبية تعكس المتواليات التي تمايز بينهما وتجعلهما نقيضان الأعلى والأدنى ف: "الأعلى أرفع منزلة من الأدنى... المرأة من الناحية الدينية بيان من متاع الحياة الدنيا..."⁽³⁸⁾، لا تساويه ذهنيًا وجسديًا ولا دينيًا... هي تابعة له لا غير، ظله، ويظهر ذلك في مستوى التعامل حيث أنه مثلاً السلوك العدوانى والمشاجرات بين الذكور مقبولة، نشاطهم يتسم بالقوة

والصراع والميل للاستقلال عكس الفتاة وهي في الحقيقة مقدمات رسائل حول مقامات الرجولة التي تلقن منذ الصغر فلا يحق بالتالي أن ينعى الرجل بأنه امرأة وإلا أصبح دليل لتحقيره أما في حالة النساء فالمجتمع يسخر من التي تتحرف عن دورها المتوقع كأنثى (زوجة، أم...) .

وتقابل الثقافة المرأة بمجموعة من النعوت أو الآليات الدالة على نوعها الحبيس أشياء الجسد والذات والتي يلجأ إليها المجتمع كمتراذفات مدعمة للخطاب الذي يعوق تحركها ويحصرها في عالم خاص، ينعته بالدونية، هناك مجموعة من النعوت والألفاظ تجعل النوع الاجتماعي أمرا طبيعيا عاديا ومفروغا منه وهي من قبيل: الكذب، التقلب، النفاق، المراوغة، الانفعال، الشهوة، الرومانسية، الشبية، التلبس، سرعة التأثر، المرونة، لديها رغبة في المدح، البهجة، تتنابها مشاعر الانقباض والتوتر والضيق، والعصبية (فترات الحيض)، الحنان، الدعة، الرقة، الخجل، الخنوع، الطاعة، الجبن، الانكسار... إلخ، وتزيد الثقافة في تلقين وتعبئة عقل الأنثى بمثل هذا النوع من المتواليات والنعوت المشكلة ثقافيا منذ الأزل وإلى يومنا هذا يعاد إنتاج هذه النعوت والصفات والسجايا بطرق مختلفة .

رغم أن المرأة (الجانب الطبي) تتعرض للشقاء والمعاناة والأكثر تحملا للآلام من الرجل (معاناتها مثلا أثناء الوضع...) لكن ينظر دائما لهذا الجانب بنظرة سلبية ولعلنا في هذا الإطار يمكننا القول أن لـ: "... مفاهيم الرقة والحشمة والدلع والغنج والنعومة المرتبطة بالمرأة وعكسها أي مفاهيم القوة والخشونة والشدة والإقدام المرتبطة بالرجل تاريخيا متغيرة وليست ثابتة ..."⁽³⁹⁾ هي ليست أزلية كما يعتقد - رأينا ذلك عبر المخيال الاجتماعي - وكذلك ينفي عنها النعت بالقدسية التي جعلت الفوارق أو الضدية بين الجنسين (ذكر/ أنثى) ذات سلطة ثقافية دائمة التجديد، الذكورة تمارس السلطة ضدّ الأنوثة والتي تظهر في ثوب مختلف من مجتمع لآخر.

ويدعم هذه القضايا المتسمة بانتقاص قيمتها قانون الأحوال الشخصية وعجز هذا القانون عن الوقوف في وجه العادات الاجتماعية والأعراف وحرمانها من التعليم والعمل، وإجبارها على زواج مبكر أو بمن لا تريد الزواج منه، وبحبسها في

البيت وحرمانها من حرية الممارسة في الحياة العامة أو الخاصة، ناهيك عن جريمة قتلها بحجة الدفاع عن الشرف.

ولعل أكبر اضطهاد اجتماعي يمارس على المرأة وبخاصة العاملة هو تحميلها وحدها عبء العمل المنزلي وتربية الأطفال دون أي مقابل أو تقدير لهذه الأعمال التي لا تحظى بتقدير اجتماعي وتستهلك عمر المرأة، حتى لو كان عملها نفس عمل الزوج خارج المنزل.

كما ساهمت وسائل الإعلام على تعدد انتماءاتها وميولها في ممارسة العنف على المرأة، من حيث تقديمها بصورة نمطية تقليدية، بصورة بعيدة عن الواقع، تصويرها مترفة غارقة في العطور ومتدثرة بالحرير، أو بائسة مسحوقة، في حين يجب تقديمها في صورة تعبر عن الواقع المعيش، كباحثة ومعلمة وطبيبة ومحامية وصحفية ومهندسة وأديبة وفنانة، وقبل كل هذا هي الأم التي تربي الأجيال بالإضافة إلى ذلك نجد أن صورة وجسد المرأة يستغل بشكل فضائي في الإعلان التجاري وفي مجال شركات التسويق، حيث يسوق بضائع ومنتجات بسيطة تافهة. وقد استخدمها الإعلان أداة في إثارة الغرائز وترويج ثقافة الانحلال الأخلاقي والاجتماعي، ونلاحظ هذا في الفيلم المصور (فيديو كليب) المرافق للأغاني وتظهر فيه المرأة العربية وكأنها نموذج غربي، ضاربة عرض الحائط بقيم المجتمع الذي يفترض أنها تنتمي إليه⁴⁰.

خاتمة:

الغالب أن الثقافات متفقة على المبدأين (ذكر وأنثى) في دونية الأنثى ونقصها وضعفها، إدعاءات حوّلت المرأة -اختزالية، قدرية، تبسيطية- إلى متاع ومجرد مخلوق ناقص، ناقصة عقل ودين، عورة، ضلع أعوج، مختزل مسلوب الإرادة لا يقرر مصيره، محكوم عليه بالقدر البيولوجي الذي سحب منها الثقة بالنفس وحكم عليها بالدونية الأزلية منذ أقدم العصور والحضارات الإنسانية و التي تناولنا جانباً منها كي نفهم الدونية التي وسمت بها المرأة ولا زالت، وسواء أصّحت هذه الإدعاءات أم لم تصح فإن طرح قضية النوع/ الجنس أو مسألة الذكورة/ الأنوثة

من الزاوية الثقافية يكتسي أهمية قصوى في مجال المطارحة النقدية مع مكبوتنا المعرفي في الأدب الشعر والفلسفة واللغة والدين وغيره.

إذ إنه ونتيجة للاستمرارية التاريخية لممارسة العنف ضد المرأة بأشكاله المختلفة والتي أضحت ثقافة مجتمعية بحد ذاتها، وقد اطلعنا على جزء منها خاصة المتداول في أشكال الخطاب الفكري والديني والشفوي فقد تشكلت لدى المرأة آلية سلبية كرد فعل على ذلك وأضحت هي نفسها تسهم في قبولها للعنف بل وتعيد هي إنتاجه (التنشئة الاجتماعية ...) ، وتصمت وترضى وتخضع أو تخضع له بوصفه قدرا محتوما ناجم عن نقص طبيعي فيها يقتضي من المجتمع تقويمه باستمرار وهذا الاعتقاد الخاطئ يعمل بلا هوادة على وأد الجانب الإنساني فيها سواء تم ذلك بصفة مادية أو معنوية والتي إن حللنا أو غصنا في أعماقها نجد أنها ترتدي طابعا قدسيا يرتبط حيناً بالدين وحيناً آخر بالتفسيرات الميثولوجية والممارسات العقائدية ولاحقاً ارتبطت بقضايا النوع الاجتماعي التي تتعلق بالجانب البيولوجي أي التفسير العلمي الذي على أساسه تقام الفوارق بين قيم الذكورة و الأنوثة ثم إعادة إنتاج دونية المرأة تحت غطاء مسميات وممارسات معاصرة تظهر في القوانين والتشريعات التي تفوقها الأعراف والتقاليد في الكثير من الأحيان والنظم المختلفة خاصة السياسية وكذا ما تعكسه وسائل الإعلام عن مكانتها السلبية وغيره من الآليات التي أنتجت وتعيد إنتاج العنف ضد المرأة بأشكال مختلفة .

المراجع :

- 1- إبراهيم محمود، الضلع الأعوج، المرأة وهويتها الضائعة، رياض الريس للكتب والنشر، بيروت، 2004 ، ص ص 228-229.
- 2- نفس المرجع، ص 18.
- 3- السعداوي نوال، الوجه العاري للمرأة العربية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1982، ص 35.
- 4- الأبشهي شهاب الدين، المستطرف من كل فن مستظرف ، دار البحار، لبنان، 2000، ص 786.
- 5و6- نفس المرجع ، ص 787.

- 7- كحالة عمر رضا، المرأة في القديم والحديث، سلسلة بحوث إجتماعية-8 جزء1، مؤسسة الرسالة، بيروت، ص 81.
- 8- نفس المرجع، ص 84.
- 9- رينيه جرار، العنف المقدس، ت : جهاد هواس، عبد الهادي عباس، دار الحصاد للنشر والتوزيع ، دمشق، ، 1992، ص 8.
- 10- شعبو أحمد ديب، في نقد الفكر الأسطوري والرمزي، أساطير ورموز وفلكلور في الفكر الإنساني، المؤسسة الحديثة للكتاب، لبنان، 2006. ص 258.
- 11-Durand (Gilbert), **Les structures anthropologiques de l'imaginaire**, Berg international, Paris , 10 e édition, 1980, pp 353-354.
- 12-et13-Ibid, p 354.
- 14- سورة التكوير، الآيتان 8، 9.
- 15-Sous la direction d'elizabeth paquot, **Terre des femmes dans le monde**, la decouvert/ Maspero Paris,, 1983, p 349.
- 16-Ibid, p 350.
- 17- الأنصاري فاضل، العبودية، الرق والمرأة بين الإسلام الرسولي والإسلام التاريخي ، الأهالي للطباعة والنشر و التوزيع ، سوريا ، ط1، 2001، ص 61.
- 18-Ibid, p 349.
- 19- الزاهي نور الدين، المقدس الإسلامي ، دار توبقال للنشر، المغرب، ط1، 2005، ص 11.
- 20- جسوس نعمان سمية، بلا حشومة، الجنسية النسائية في المغرب، ت : عبد الرحيم حزل ، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء/ بيروت ، ط1، 2003، ص 177.
- 21- نفس المرجع، ص179.
- 22- نفس المرجع، ص 190.
- 23-Lacoste dujardin (Camille), **Des mères contre les femmes**, Edition Bouchen, Alger , 1990, p 58.
- 24-M'rabet (Fadella), **La femme Algérienne**, Librairie François Mespero, Paris, 1964, p 82.

- 25- زيعور علي، التحليل النفسي للذات العربية، أنماطها السلوكية والأسطورية ، دار الطليعة، بيروت ، ط3، 1982، ص 77.
- 26- السعداوي نوال ، دراسات عن المرأة والرجل في المجتمع العربي ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ، ط1990، ص 267.
- 27- نفس المرجع، ص 43.
- 28- مجموعة أساتذة، المرأة العربية بين الواقع والتصور ، نور دار المرأة العربية للنشر ، القاهرة ، 1995، ص 120.
- 29- حجازي مصطفى، _التخلف الاجتماعي (مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور) ، المركز الثقافي العربي، المغرب/ لبنان ، ط8، 2001، ص 220
- 30- نفس المرجع، ص 14.
- 31- بن الشريف محمود، القرآن ودنيا المرأة ، دار ومكتبة الخلال، بيروت ، 1991، ص 97.
- 32- رياحي عبد الرحمن، قال المجذوب ، مكتبة الشركة الجزائرية ، الجزائر ، ط1، 2000، ص ص 73-74.
- 33- نفس المرجع، ص 34.
- 34- نفس المرجع، ص ص 74-75.
- 35- حجازي مصطفى، نفس المرجع، ص 225.
- 36- الغزالي أبو حامد، إحياء علوم الدين ، ج3 ، دار المعرفة، بيروت ، بدون سنة، ص 101.
- 37 - Thébaut (Françoise), **Ecrire l'histoire des femme**, ENS Editions, Paris, 2001, p 164.
- 38- الخوري فؤاد اسحاق، إيديولوجيا الجسد، رموزية الطهارة والنجاسة، دار الساقى، بيروت ، ط1، 1997، ص 28.
- 39 - إبراهيم محمود ، نفس المرجع ، ص 160.
- 40 - انظر : جمانة طه ، المرأة العربية في منظور الدين والواقع ، من منشورات إتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، 2004.